

محافظة بني سويف
قصر الثقافة

التربية الروحية في القرآن الكريم

المحاضرة التي ألقاها بقصر الثقافة بدعوة من السيد محافظ بني سويف

الأستاذ حسن كامل المطاوي

وكيل وزارة الخزانة السابق

في مساء الأربعاء ٢٥ من شوال ١٣٩٢ هـ - الموافق ٢٩ نوفمبر ١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم
التربية الروحية فى القرآن الكريم

الحمد لله الذى جعلنا مؤمنين بالله قلبا وقالبا ، ولم تكن ممن نافقوا فنطقت ألسنتهم وأنكرت قلوبهم وقال سبحانه فيهم (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون) والصلاة والسلام الأكملان على سيدنا ومولانا محمد الذى أرسله الله رحمة للعالمين ونورا للمتقين فأضاء لهم سبيل العمل الصالح بأقواله وأفعاله وأحواله الشريفة ، ورضى الله عن آله الكرام وأصحابه الأعلام وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأخص منهم شيوخى الراحلين الأتقياء الأصفياء ساداتنا لإمام الغوث الحاج محمد أبو خليل صاحب طريقتنا الخليلية وخليفته سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى وسيدى الشيخ على عقل ، أما بعد :

فقد كانت لى قبل هذه المحاضرة محاضرتان إحداهما فى التربية الإجتماعية فى القرآن الكريم فأردت أن تكون محاضرة الليلة فى التربية الروحية فى القرآن الكريم لأن التربية بأطرافها المتعددة تزكى الروح فى نهاية الشوط على معارج القرآن العلية وتزج بها فى أنوار الملكوت القدسية فتتطهر من رجس الخصال البشرية الحيوانية وتتعلى بالأخلاق البشرية فيكون المؤمن من عباد

الرحمن الذين قيل في وصفهم : هم أجسام روحانيون وفي الأرض سماويون . جعلنا الله وإياكم ممن يشملهم ذلك الوصف الأخاذ .

العلم بوحداية الله تعالى :

عنى القرآن الكريم بعقيدة التوحيد لأنها أساس التربية الروحية المتين ، فدعا إلى توحيد الله تعالى توحيدا خالصا لا يعتره شوب من شرك ، كما دعا أن تقوم عقيدة التوحيد على علم حتى إذا نطق المسلمون بشهادة التوحيد قالوا : وما شهدنا إلا بما علمنا .

وإذا أنت دقت التدبر فى قوله تعالى فى سورة آل عمران (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ^(١)) فإنك ترى أن ربك سبحانه قد دعاك إلى أن تؤمن بواحدانيته إيمان شهود بعلم ، وهو إيمان الملائكة وأولو العلم ، ولم يرد الله تعالى أن تكون مقلدا غيرك فى عقيدتك ، لأنك إذا قلدت فاسد العقيدة كنت فاسدا مثله ، ولا تستطيع أن تميز بين فساد العقيدة وصحتها إلا بالعلم الذى لا يشوبه جهل .

وهذا ما يفسر لك اعتراض القرآن الكريم على أهل التقليد فى قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه

(١) آية ١٨ من سورة آل عمران .

آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ^(١) ، كما يفسر لك قوله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله ^(٢)) .

ولأن الأمة كلها مأمورة بهذا القول الكريم (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ولأنها متفاوتة فى مستويات الفهم الذى يقتضيه العلم فقد خاطب القرآن الكريم طوائف الناس على قدر عقولهم تمكيناً لهم من التفكير الذى يوصلهم إلى العلم بواحدانية الله تعالى .

فخاطب سبحانه العوام بالمحسوسات التى تحيط بهم فقال تعالى مثلاً (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ^(٣)) كما قال سبحانه (فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شققاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنبا وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلباً * وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم ^(٤)) وقال تعالى (ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفقتين * وهديناه النجدين ^(٥)) وقال تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ^(٦)) وقال تعالى

(١) آية ١٧٠ من سورة البقرة

(٢) آية ١٩ من سورة محمد

(٣) الآيات من ١٧ - ٢ من سورة الغاشية

(٤) الآيات من ٢٤ - ٣١ من سورة عيس

(٥) الآيات من ٨ - ١٠ من سورة البلد

(٦) الآيات من ٥ - ٧ من سورة الطارق

ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ^(١)) وغير ذلك كثير جدا كما هو معلوم .

ولما جاء القرآن الكريم لخطاب أهل العلم قال تعالى (أفلا يتديرون القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ^(٢)) والقرآن كله بليغ رصين ، أعجز في بيانه أهل الفصاحة حين تحداهم أن يأتيوا ولو بسورة من مثله ، ومع طوله لم يختلف أسلوبه قوة وضعفا ، ولم تتضارب معانيه ، بل اتفقت نتائجه مع مقدماته ، حتى قال الكافرون إعجابا به مع كفرهم به: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمغدق وإن أسفله لمثمر .

وحين خاطب القرآن الكريم أعظم الرسل شأنا وأعمهم رسالة وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ^(٣)) فأحاله إلى العلم الذي آتاه الله من غير تحصيل بالأسباب المعهودة ، كما قال له

(١) الآيات من ١٢ - ١٤ من سورة المؤمنون

(٢) آية ٨٢ من سورة النساء

(٣) آية ٥٢ من سورة الشورى

تعالى (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً^(١)) وقد اختار الله تعالى دعوة يدعوها فقال له عز وجل (وقل رب زدني علماً) ومن الدعوات المأثورة: "اللهم علماً ما ينفعنا وأنفعنا بما علمتنا وزدنا علماً".

وينوه القرآن الكريم بعمق الفهم عند أهل العلم وحسن استعدادهم لقبول المعلومات فيقول تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون* إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم* وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون^(٢)) ، ويقول سبحانه (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين^(٣)) .

ويفرق الله تعالى بين المغرضين المعوجين والصادقين المستقيمين فيبين لنا أن أهل الغرض السئ ينأى بهم هوى نفوسهم عن الحق ، أما المستقيمون من أهل العلم فيلتزمون الجادة ولا يحددون يمناً أو يسرة عن سواء السبيل ، فيقول تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ

(١) آية ١١٣ من سورة النساء

(٢) الآيات من ٤ - ٤٣ من سورة العنكبوت

(٣) آية ٢٢ من سورة الروم

فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنة به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب (١) كما يقول تعالى : (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل من قبلك والمقيمى الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما (٢)) .

وهكذا نجد القرآن الكريم يأخذ بأيدينا إلى التوحيد الخالص من طريق العلم وبالتفكير المناسب لمستويات الطبقات المختلفة من البشر فإذا اهتدينا إلى وحدانية الله تعالى ثبتنا عليها على علم واستمعنا إلى الله فيما يأمرنا به أو ينهانا عنه ، ودين الإسلام هو دين الفطرة السليمة كما قال تعالى فى شأنه (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣)) .

الإيمان بالرسالة المحمدية :

وقد علمنا سبحانه أن سيدنا ومولانا محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل

(١) آية ٧ من سورة آل عمران
(٢) آية ١٦٢ من سورة النساء
(٣) آية ٣٠ من سورة الروم

للشكر كافة . ولذلك كانت رسالته أعم الرسائل السماوية فقال تعالى : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ^(١)) وفى ذلك أمر صريح بأن نؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم وبأن نتبعه إن أردنا الإهتداء إلى الصراط المستقيم .

الإيمان بالرسالات السابقة :

وكما أمرنا الله سبحانه أن نؤمن بالرسالة المحمدية أمرنا كذلك أن نؤمن بالرسالات التى سبقتها فى أزمانها فقال تعالى : (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمين ^(٢)) :

كل الرسائل متفقة فى العقيدة

وكل الرسائل السماوية متفقة فى عقيدة التوحيد وفى سائر الإيمانيات

(١) آية ١٥٨ من سورة الأعراف
(٢) الأيتان ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة البقرة

الغيبية كالإيمان باليوم الآخر والملائكة والجنه والنار والصراط .. إلخ وإن كانت ثمت خلافات بينهما فإنما هي في جزئيات العبادات وأحكامها الفرعية ، ولذلك أيدت الرسالات بعضها بعضا ، لأنها جميعا تدعو إلى إله وأحد وإلى عقيدة واحدة ودين واحد ، ويقول تعالى فى ذلك (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه^(١)) كما يقول تعالى : (وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون^(٢)) .

العبادات :

وفرض الله على المؤمنين الموحدين عبادات تزكى نفوسهم فى صلتها بالله عزوجل ، وكل عبادة تعالج مرضا من أمراض النفوس البشرية ، وهى أمراض خفية لا تراها الأعين ، لأنها خافية بخفاء النفس التى تلبس جسد الإنسان ، ولا نراها بأعيننا .

الصلاة:

وأهم العبادات التى فرضها الله تعالى بعد التوحيد هى الصلاة صلة بين العبد وربّه ، يقف فيها العبد بين يديه سبحانه متطهرا مكبرا راکعا ساجدا مسجبا داعيا ومستغفرا ، ومتدبرا كلام الله الذى يقرؤه

(١) آية ٣ من سورة الشورى
(٢) آية ٢٥ من سورة الأنبياء

وذلك خمس مرات فى اليوم والليلى ، وسرا وجهرا ، فيخاف ربه من فوقه ، ويرجو رحمته من احسانه ، ويزداد خوفا منه وطعما فيه كلما ناجاه ، فينتهى عن الفحشاء والمنكر ، ويتحلى بالثقوى والصلاح ويكون من أهل السعادة والفلاح .

وترى كل ذلك واضحا فى كتاب الله تعالى ، فى مثل قوله عز وجل (أتلى ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ^(١)) .

ويقول الإمام القشيري رضى الله عنه فى لطائف إشاراتة عند هذه الآية :
 ".... ويقال : بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء " والمنكر . فإن كان ، وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها :

" ويقال : الفحشاء هى الدنيا ، والمنكر هو النفس

" ويقال : الفحشاء هى المعاصى ، والمنكر هو الحظوظ

" ويقال : الفحشاء الأعمال ، والمنكر حسابان النجاة بها ، وقيل ملاحظته الأعراض عليها ، والسرور والفرح بمدح الناس لها .

" ويقال : الفحشاء رؤيتها ، والنكر طلب العوض عليها .

" (ولذكر الله أكبر) : ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين ، لأن ذكره قديم ، وذكر الخلق محدث .

(١) آية ٤٥ من سورة العنكبوت

" ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى ، لأن ذكره لله طاعة ، وذكره لغيره لا يكون طاعة .

" ويقال : ولذكر الله لك أكبر من ذكرك له .

" ويقال : ذكره لك بالسعادة أكبر من ذكرك له بالعبادة .

" ويقال : ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة .

" ويقال : ذكر الله أكبر من أن يبقى للذاكر معه ذكر مخلوق

" ويقال : ذكر الله أكبر من أن يبقى للزلة معلوما أو مرسوما

" ويقال : ذكر الله أكبر من أن يعيش أحد من المخلوقين بغيره .

" ويقال : ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه للفحشاء والمنكر سلطانا فلحرمة ذكره زلات الذاكر مغفورة ، وعيوبه مستورة .

ويصف سبحانه وتعالى الصلاة لرسوله العظيم صلى الله عليه وسلم تنفيسا واسترواحا لنفسه من الضيق ، فيقول تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين)^(١) كما يقول له سبحانه (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى)^(٢) وهي آية تشمل الصلوات الخمس بالليل والنهار كما ترى .

(١) الآيات من ٩٧ - ٩٩ من سورة الحجر

(٢) آية ١٣٠ من سورة طه

ثم يعمم الله الصلاة في أمته صلى الله عليه وسلم واهل بيته فيقول سبحانه (وأمر أهلك بالصلاة وأصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعافية للثقوى^(١)) ويمدح الله سادتنا الصحابة الكرام فيقول (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود^(٢)) ويقول تعالى فيهم كذلك (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)^(٣) .

ولأهمية الصلاة في صلة المؤمن بربه أمر الله المؤمنين بالمحافظة عليها والعناية بأدائها في أوقاتها ولم يسقطها عنهن حتى في ساحة الحرب فقال تعالى (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا الله قانتين * فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون)^(٤) .

ويطول بنا أستقصاء الآيات التي أمرتنا بالصلاة فنكتفي بما تقدم سائلين الله تعالى أن نكون من الركع السجود الخاشعين لله والمسبحين ربهم بالليل والنهار لا يسأمون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون

(١) آية ١٣٢ من سورة طه

(٢) آية ٢٩ من سورة الفتح

(٣) الأيتان ١٦ ، ١٧ من سورة السجدة

(٤) الأيتان ٢٣٨ ، ٢٣٩ من سورة البقرة

الزكاة :

وقد فرض الله على الأغنياء فى أموالهم الزكاة ليعالج بها شح النفوس وبخلها ، وليورث الغنى العطف على البائس الفقير ، ويربية تربية عملية على شكر النعمة بالفعل لا بالقول وحده ، وقد قال تعالى (اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور)^(١).

وقد أقرنت الزكاة بالصلاة فى كثير من آيات القرآن الكريم كما هو معلوم ، وعلى سبيل المثال نذكر قوله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)^(٢) وقوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)^(٣) وقوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)^(٤) وقوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)^(٥) وقوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض

(١) آية ١٣ من سورة سبأ

(٢) آية ١٨ من سورة التوبة

(٣) آية ٢٧٧ من سورة البقرة

(٤) آية ٥٥ من سورة المائدة

(٥) الآيات من ٢ - ٤ من سورة الأنفال

يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم^(١)) ولعل في هذه الأمثلة كفاية لبيان أهمية الزكاة عند الله سبحانه وتعالى .

ويؤكد لك تلك الأهمية ما هدد الله به ما نعى الزكاة في قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون^(٢))

كما يقول سبحانه (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم^(٣)) وقد أرانا الله تعالى عاقبة الشح ومنع الزكاة وأخبرنا بما انتهى إليه أمر قارون حين بخل بالزكاة وبغى على قوم سيدنا موسى عليه السلام وقال مغرورا بماله (إنما أوتيته على علم عندي^(٤)) فقال تعالى (فحسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرون من دون الله وما كان

(١) الآية ٧١ من سورة التوبة .

(٢) الأيتان ٣٤ و ٣٥ من سورة التوبة .

(٣) آية ٣٨ من سورة محمد .

(٤) آية ٧٨ من سورة القصص .

من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين^(١) ، وفي أمتنا المحمدية حكى الله ما كان من أمر ثعلبة ابن حاطب ، وذلك في قوله تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب^(٢)) وقصة ثعلبة كما وردت في كتب التفسير هي أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . ثم أتاه بعد ذلك فقال . يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما لك في أسوة حسنة ، والذي نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت .

(١) الآيات من ٨١ - ٨٣ من سورة القصص .

(٢) الآيات من ٧٥ - ٧٨ من سورة التوبة .

ثم أتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا ، والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا .

قال : فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود ، فضاقت عليه المدينة ، ففتحى عنها فنزل واديا من أوديتها وهى تنمى كما ينمى الدود ، فكان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ، ويصلى فى غنمه سائر الصلوات

ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ، ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضاً فصار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار ، فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا له : يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنما ما يسعها واد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة .

فأنزل الله آية الصدقة (الزكاة) فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بنى سليم ورجلا من بنى جهينة ، وكتب لهما أسنان الصدقة ، وكيف يأخذانها ، وقال لهما : مرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بنى سليم فخذوا صدقاتها .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى ، فانطلقا .

وسمع بهما السلمى ، فنظر إلى خيار اسنان إبله فعزلها للصدفة ثم استقبلهما بها ، فلما رأياها و قالوا : ما هذا عليك ، قال : خذاه فإن نفسى بذلك طيبة ، فمرا على الناس وأخذوا الصدقات .

ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أرونى كتابكما ، فقراه ، فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، اذهبا حتى أرى رأيى .

قال : فأقبلا ، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يتكلما : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، ثم دعا للسلمى بخير ، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة ، فأنزل الله فيه الآيات السابقة .

وقال المفسرون : وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما نزل فى شأنه فخرج حتى أتاه ، فقال : ويحك يا ثعلبة ، لقد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك ، فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعنى ، فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقضى صدقته رجع إلى منزله ، ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، أتى أبا بكر فقال : اقبل صدقتى ، فقال سيدنا أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا لا أقبلها ، فلما ولى عمر أتاه و فقال : اقبل صدقتى ، فقال : لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا أبو بكر ، فأنا لا أقبلها منك ، ثم ولى عثمان فأتاه فلم يقبلها منه ، وهلك ثعلبة فى خلافة أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه .

وقال بعض العلماء : إنما لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة ثعلبة لأن الله تعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على خلاف ما عاهد الله عليه وإهانة له وليعتبر غيره فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس بإخراجها ويرى أنها واجبة عليه وأنه يثاب على إخراجها ويعاقب على منعها .

فانظر كيف يربى الله تعالى أرواحنا على صدق النية والوفاء بالعهد ، ومقاومة شح النفوس وحملها على البذل فى سبيل الله عز وجل ، وكيف يبصرنا بأن الله تعالى يعلم سرنا وجهرنا ، ويرى ما نبديه وما نخفيه من تصرفات أو خفايا فى الصدور ، ويرحم الله شاعرنا العبقري المرحوم إسماعيل صبرى ، إذ يقول مناجيا ربه:

يارب أهلى لفضلك واكفنى	شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى	غضب الحليم ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبى محنة	علمى بأنك عالم الأسرار

وأنظر كيف يلاطف الله عباده ويدعوهم إلى الإنفاق فى سبيله ليضاعف لهم الأجر ، فيقول جل جلاله : (منذا الذى يقرض الله

قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها النهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم^(١) .

وقد قال العلماء : القرض لا يكون حسناً حتى يجمع أوصافاً عشرة : أن يكون المال من الحلال ، وأن يكون من أجود المال ، وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه ، وأن تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها ، وأن تكتم الصدقة ما أمكنك ، وألا تتبعها باليمن والأذى ، وأن تقصد بها وجه الله فلا ترائى بها الناس ، وأن تستحقر ما تعطى وإن كان كثيراً ، وان يكون من أحب أموالك إليك ، وألا ترى عز نفسك وذل الفقير .

فريضة الصيام :

وليقوى فينا سبحانه مراقبة الله تعالى في أسرارنا فرض علينا صيام شهر رمضان من كل عام ، والصيام تحكم من الصائم في هوى نفسه ، لأنه يحرمها الطعام والشراب وشهوة الفرج من الفجر إلى غروب الشمس ، وإذا حرمها بتحكمه في هواها من الحلال هذه المدة أمكنه أن يمنعها من ان تأتي بهواها ما حرم الله من مثل الغيبة والنميمة والنظرة الفاحشة والتعدى على الحرمات فيظهر نفسه ظاهراً وباطناً بتقوى الله وشهوده

(١) الأيتان ١٠ ، ١١ من سورة الحديد .

وخشيته فى السر والعلانية ، ويتشبه فى نهاره بالملائكة الأطهار ، وإذا تشبه بهم فى نهاره استطاع أن يتشبه بهم فى ليله من حيث الكف عما يغضب الله ، والإقبال على ما يرضيه فى صدق همة وخلص نية ، فتذوق روحه طعم الطاعات وتتلدز بها أشد مما يتلدز الجسد بالمطعمات والمشروبات ، فتصفو وتتصل بالعالم الأسنى بصفاتها النوراني ، وتتلقى من العطاء الرحمانى ما لا يحد ولا يعد ، وإنك تجد مصداق ذلك إجمالاً فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)^(١) ، وفى قوله تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون)^(٢) .

فانظر كيف يربى سبحانه وتعالى أرواحنا على احتمال مشقة ظاهرة من مشقات الجسد كسباً لمتعة روحية نتقى بها الله تعالى وتستوجب منا شكره عليها إذا أراد سبحانه بنا اليسر ولم يرد بنا العسر ، وذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده .

(١) آية ١٨٣ من سورة البقرة .

(٢) آية ١٨٥ من سورة البقرة .

ويقول شيخنا سيدى الشيخ على عقل فى إلهامه الفورى المرتجل طيب الله ثراه :

تعب النفس فى الحياة دواها نالت العز والمنى بشقاها

كل روح تفرغت لرضاه سعدت بالقبول من مسعاها

إن روحاً خافت من الله حقا واستغاثت به رأته رجاها

واعتمادى بالله طول حياتى علم النفس أن تذوق هناها

ويقول الإمام القشيري رضى الله عنه فى لطائف إشاراته عند الآيتين المتقدمتين فى شأن الصوم :

" الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السر عن الملاحظات .

" وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل ، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق ، قال صلى الله عليه وسلم : " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته " الهاء فى قوله عليه الصلاة والسلام " لرؤيته " عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه ، فالعلماء يقولون معناه عندهم : صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال ، وأما الخواص فصومهم لله ، لأن شهودهم الله ، وفطروهم بالله ، وإقبالهم على الله ، والغالب عليهم الله ، والذى هم به محو هو الله .

" من شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب المثوبة ، والصوم بالله يوجب القرية ، الصوم لله تحقيق العبادة والصوم بالله تصحيح الإرادة ، الصوم لله صفة كل عابد ، والصوم بالله نعت كل قاصد ، الصوم لله قيام بالظواهر ، والصوم بالله قيام بالضمائر ، الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة ، والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقية .

" من شهد الشهر أمسك عن المفطرات ، ومن شهد الحق أمسك فى جميع أوقاته عن جميع أوقاته عن شهود المخلوقات .

" من صام بنفسه سقى شراب السلسيل والزنجبيل ، ومن صام بقلبه سقى شراب المحاب بنعمه الإيجاب .

" ومن صام بسره فهم الذين قال فيهم الله تعالى (سقاهم ربهم شرابا طهورا) شراب ياله من شراب ، شراب لا يدار على الكف لكنه يبدو لهم من اللطف ، شراب استثناس لا شراب كاس " وكلام الإمام القشيري رضى الله عنه كلام نفيس كما ترى فاحرص على الانتفاع به ، وسبحان من جعل أولياءه المتقين منارة للسالكين على مر السنين .

فريضة الحج :

وقد أكمل الله الدين بفريضة الحج التى كتبها الله على المستطيعين مرة فى العمر ، وجعل أداءها مطهرة من الذنوب فيعود الحاج إلى وطنه مغفورا له بعد حج بيت الله الحرام بمكة المكرمة ، كما ورد فى الحديث

الشريف " من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " والحديث الشريف بصيغته هذه يذكرنا بقوله تعالى (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب^(١))

وعند قوله تعالى (وأتمو الحج والعمرة لله^(٢)) يقول الإمام القشيري رضى الله عنه فى لطائف إشاراته : إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وعلى لسان الإشارة الحج هو القصد ، فقصد إلى بيت الحق ، وقصد إلى الحق ، فالأول حج العوام ، والثانى حج الخواص ...

" وكما أن الذى يحج بنفسه يحرم ويقف ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يعلق . فكذاك من يحج بقلبه ، فإحرامه بعقد صحيح على قصد صريح ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ثم باشتماله بثوبى صبره وفقره .. وموقف النفوس عرفات ، وموقف القلوب الأسامى والصفات (أى أسماء الله الحسنى وصفاته سبحانه) عند المواصلات ثم طواف القلوب عند مشاهد العز والسعى بالأسرار بين صفى كشف الجلال ، ولطف الجمال .

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل فى المعنى الإشارى المتقدم :

(١) آية ١٩٧ من سورة البقرة

(٢) ١٩٦ من سورة البقرة

يارب قلبي قد غسلت من الوري إذا ليس غيرك ما حييت ببالي
فاجعل هداك شريعتي وذريعتي واجعل شهودك لي مسرة حالي
روض المحبة قد شهدت جلاله وجماله فثبت في أحوالي
إن كنت تحسب أن في المال الغنى أنا قد جعلت رضا المهمين مالي

وفي اشارته عند قوله تعالى (الحج أشهر معلومات) يقول سيدي الإمام القشيري رضى الله عنه :

" كما أن الحج بالنفوس أشهر معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها ولا يجوز فعل الحج في جميع السنة إلا في وقت مخصوص . من فاته ذلك الوقت فاته الحج . فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصلح إلا فيها ، وهي أيام الشباب ، فمن لم تكن له إرادة في حال شبابه فليست له وصلة في حال مشيئة ، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصح إلا للعبادة التي آخرها الجنة ، فأما الإرادة التي آخرها الوصلة ، فلا " وعند قوله تعالى (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) يقول الإمام رضى الله عنه في إشارته :

" كذلك الإشارة لمن سلك طريق الإرادة ألا يعرج على شئ في الطريق ولا يمزج إرادته بشئ ، فمن نازعه او عارضه أو زاحمه سلم الكل للكل ، فلا لأجل الدنيا مع أحد يخاصم ، ولا لشئ من حظوظ النفس والجاه مع أحد يزاحم ، قال تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا اسلما^(١)) أقول

(١) آية ٦٣ من سورة الفرقان

وما أوردعه رضى الله عنه فى استدلاله بهذه الآية الأخيرة التى جاءت فى وصف عباد الرحمن الذين شرفهم سبحانه وتعالى بالإنتساب إليه جل وعلا دون غيرهم من كل عباده الذين خلقهم بقدرته وأطعمهم من رزقه ، كما شرف بالإنتساب إليه بيته الحرام بقوله (ببى) وإن كانت بيوت الأرض كلها فى ملكه وقبضته . وقد وصفهم الله سبحانه عباد الرحمن فيما وصفهم به فى سورة الفرقان بالرفق وحسن الخلق فإذا خاطبهم الجاهلون بخطاب الجهلاء فطعنوا فيهم وعابوهم قابلوا ذلك بالرفق والحلم والقول الحسن والكلام الطيب اللين لأنهم يتأسون فى ذلك بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أثنى عليه ربه سبحانه وتعالى بلىلن الجانب فى قوله الكريم (فىما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر^(١))

وقد تمت بفريضة الحج نعمة الله تعالى علينا وصدق سبحانه إذ يقول (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وإنك ترى مما تقدم أن من قصد من المؤمنين الموحدين بعباداته من صلاة وصيام وزكاة وحج إرضاء الله تعالى فى سلوكه لم يقف فى تأدية عباداته عند الشكل الذى لا روح فيه ، بل يودى الشكل امتثالا . ويهذب روحه إرادة وإنابه لله رب العالمين .

(١) آية ١٩٥ من سورة آل عمران .

الشريعة وأهدافها :

ويعقب سيدي الإمام أبو طالب المكي على قوله تعالى (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون^(١)) فيقول رضى الله عنه فى كتابه القيم قوت القلوب :

الشريعة اسم من اسماء الطريق ، وللطريق أسماء كثيرة منها . الصراط المستقيم ، والسبيل ، والمنهاج ، ، والمحجة ، والمنسك .

" والشريعة تشتمل على اثنتى عشرة خصلة هى جامعة لأوصاف الإيمان :

فأول ذلك الشهادتان وهى الفطرة ، والصلوات الخمس وهى الملة ، والزكاة وهى الطهارة ، والصيام وهو الجنة (بضم الجيم) والحج وهو الكمال ، والجهاد وهو النصر ، والأمر بالمعروف وهو الحجة ، والنهى عن المنكر وهو الوقاية ، والجماعة وهى الألفة ، والاستقامة وهى العصمة ، وأكل الحلال وهو الورع ، والحب والبغض فى الله وهو الوثيقة ، فلا يكون المسلم معتقداً لبدعة ، ولا مقيماً على كبيرة ، ولا آكل الحرام ، ولا طاعناً على صالح السلف . ويكون كاف اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم ، ويكون ناصحاً لجميع المسلمين مشفقاً عليهم . يسره ما يسرهم ويسوءه ما يسوءهم سيما لأئمتهم ، داعياً لجملتهم ، ويكون مخلصاً لأعماله كلها لله . "

ولو أنك تدبرت كلام الله تعالى لوجدت أن ما قاله سيدي الإمام

(١) آية ١٨ من سورة الجاثية

أبو طالب المكي وارداً في القرآن الكريم أمراً أو نهياً ، فقد أمر كتاب الله بالفضائل ونهى عن الرذائل ، وقد مرت عليك بعض الآيات الخاصة بالتوحيد والعبادات ، ونضع تحت نظرك بعض الآيات التي تعرضت لما قاله الإمام رضى الله عنه :

ففى الجهاد يقول تعالى مثلاً (لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً^(١))

وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقول تعالى مثلاً (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون^(٢))

وفى ترابط المؤمنين فى جماعة واحدة يقول تعالى مثلاً (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا^(٣)) كما يقول تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون^(٤))

(١) آية ٩٥ من سورة النساء

(٢) آية ١٠٤ من سورة آل عمران

(٣) آية ١٠٣ من سورة آل عمران

(٤) آية ٩٢ من سورة الأنبياء

وفى الحزب على استقامة يقول تعالى مثلا (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير^(١)) وقد شاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الآية وقال : شيبتنى هود وأخواتها " وفى أكل الحلال يقول تعالى مثلا (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون^(٢))

وفى الحزب فى الله والبغض فى الله يقول تعالى واصفا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم^(٣)) كما يقول تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون^(٤)) وأخيرا وليس آخر لا تنس أن الله تعالى أقام الأخوة الباعثة على دوام المحبة بين المؤمنين فقال تعالى (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون^(٥)) ونهانا الله تعالى عن الخلاف والاختلاف وأوجب على المؤمنين إزالته ولو بالقتال إن لم يتيسر حسمه بالسلم فقال تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فإصلحا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى

(١) آية ١١٢ من سورة هود

(٢) آية ١٧٢ من سورة البقرة

(٣) آية ٢٩ من سورة الفتح

(٤) آية ٢٢ من سورة المجادلة

(٥) آية ١٠ من سورة الحجرات

فقاتلوا التي تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) (١) ، وبين سبحانه وتعالى أن قيام الأخوة بين المؤمنين نعمة عليهم من الله وأن فرقتهم عذاب ، فقال جل وعلا : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) (٢) .

وفى النهى عن البدعة والتزام شرع الله يقول تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (٣) .

وقد أمر الله تعالى بالكف عن الكبائر فى مواضع كثيرة من كتابه الكريم ، فقال تعالى مثلاً : (قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده

(١) الآية ٩ من سورة الحجرات .
(٢) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى
وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون (١)، وشجع سبحانه وتعالى المؤمنين على
اجتناب الكبائر بقوله الكريم : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم
مدخلا كريما) (٢) .

ونهانا الله تعالى عن أكل الحرام فى قوله سبحانه : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير
وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما
ذبح على النصيب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق) (٣) .

وقد نصحنا الله أن ندعو لأسلافنا الصالحين بالمغفرة ومقتضى ذلك ألا نذكرهم بسوء ، فقال
تعالى بعد أن ذكر سادتنا المهاجرين والأنصار بمناقبهم الكريمة : (والذين جاءوا من بعدهم
يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا
إنك رؤوف رحيم) (٤) .

أما الكف عن أعراض المسلمين عامة ، فقد نهانا الله عن سوء الظن

(١) الآيتان ١٥١ و ١٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٣١ من سورة النساء .

(٣) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٠ من سورة الحشر .

والتجسس والغيبة ، فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله إن الله تواب رحيم)^(١) ، كما نهى سبحانه عن الازدراء والسخرية والتنازب بالألقاب ، فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)^(٢) .

وقد علمنا الله تعالى أن ندعوه بلسان الجماعة في قوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)^(٣) ، كما علمنا سبحانه أن نتواصى نحن المؤمنين فيما بيننا حكاما ومحكومين تابعين ومتبوعين بالحق والصبر ، فقال تعالى : (والعصر * إن الإنسان لفسى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)^(٤) .

(١) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٢) الآية ١١ من سورة الحجرات .

(٣) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٤) الآيات ١ - ٣ من سورة العصر .

أما السرور بما يسر المؤمنين فإليه يشير قوله تعالى : (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين^(١)) وقد أحب المؤمنون أن ينتصر جيش المسلمين على أعدائهم ويتم لهم الفتح لأن في انتصار المسلمين نصراً للإسلام فبشرهم الله بتحقيق ما أحبوا وعجل لهم ما أرادوه للإسلام وأهله .

وأما الإخلاص لله فقد قال تعالى في شأنه (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص^(٢)) .

وهكذا رأينا أن سيدي الإمام أبا طالب المكي استنار فيما دعا إليه بنور القرآن الكريم وقد كشفنا للقارئ الكريم عن تلك الأنوار بما سقناه إليه على سبيل المثال من الآيات البيّنات ، لأن المحاضرة المحدودة لا تتسع لحصر كل ما ورد فيما نهنا إليه رضى الله عنه .

والإمام أبو طلب المكي إمام صوفى كبير ، وقد تربى على مشرب السادة الصوفية ، على يد شيخه الإمام الكبير سيدي سهل بن عبد الله التستري ؛ ويشير إليه كثيراً فى كتابه " قوت القلوب " فيقول : قال إمامنا أبو محمد ، وفى هذه الكنية تعظيم لشيخه رضى الله عنهما وعن سائر أئمتنا الصوفية أجمعين .

الإسلام شريعة وحقيقة :

والسادة الصوفية لم يبتكروا من عندياتهم جديدا فى ديننا الحنيف ، وإنما تميزوا بين المسلمين بأنهم يأخذون الدين بقوة لا تهن وعزم لا يلين

(١) الآية ١٣ من سورة الصف

(٢) الأيتان ٢ و٣ من سورة الزمر

فياخذونه بالعزائم والمجاهدات ، لا بالرخص والتأويلات ، ولذلك اعتنوا بناحية الأحوال القلبية فى تزكية أرواحهم بنظر ثاقب ، واستناروا بأنوار الكتاب والسنة والجماعة فكانوا مقيدين بالشرعية ومؤيدين بالحقيقة ، لأن الحقيقة هى سر الشرعية ولبها الخالص كما يقول سيدى الإمام جلال الدين السيوطى ، وقد جمع الله تعالى لنا فى فاتحة الكتاب بين الشرعية والحقيقة فقال تعالى : (إياك نعبد) وهذه شرعية وقال بعد ذلك (وإياك نستعين) وهذه حقيقة لانه لاحول لنا ولا قوة إلا بالله تعالى : والسادة الصوفية يجاهدون أنفسهم حتى يبلغوا ذروه الدين ، ويتحلوا بمقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان ، ومقام الإحسان فى الدين هو كما عرفه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وقد استرشدوا بالتربية الروحية التى جلاها القرآن الكريم حين تكلموا عن محاسبة النفس ، والتوبه ، والإنابة ، والذكر ، والفكر ، والمحبة ، والتوكل ، والرضا ، والتسليم ، والزهد ، والصبر ، والإيثار ، والصدق ، والمجاهدة ، ومخالفة الهوى ، وكذلك حين تكلموا عن النفس الأمارة ، واللومة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، وعن الصديقية ، ومقامات القرب . ولا يخفى أن ذلك كله مما ورد فى كتاب الله المجيد ودعا إليه عباد الله المتقين .

محاسبة النفس :

فى محاسبة النفس يقول الله تعالى مثلا (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدو واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون ،

ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون (١) .
 ومعنى انساهم أنفسهم أى أنساهم النظر فيما ينفعها أو يضرها عند الله ويقتضى ذلك دوام
 المحاسبة ، والحرص على مرضاة الله تعالى ، وما أروع قوله تعالى (ما قدمت لغد) فقد قرب
 لنا القيامة كأنها قائمة فى غد لنعمل لها فى همة بلا كسل ، وشوق لا يعرفه فتور .
 وفى التوبة يقول تعالى مثلا : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا
 لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعملون * أولئك جزائهم مغفرة
 من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين (٢)) ويقول تعالى :
 (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣)) ويجب الله سبحانه من عبده المؤمن
 أن يخلص فى توبته إذ يقول سبحانه : (أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ، عسى
 ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار يوم لا يخزي الله النبي
 والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك
 على كل شئ قدير (٤)) والتوبة النصوح هى التوبة الصادقة الصافية .
 وما أرق ما يقول سيدي الشيخ على عقل إلهاما فى التوبة الصادقة :

(١) الآيتان ١٨ و ١٩ من سورة الحشر .

(٢) الآيتان ١٣٥ و ١٣٦ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٣١ من سورة النور .

(٤) آية ٨ من سورة التحريم .

لو كان كالطود ذنبى فى ضخامته وقلت يارب عنى الذنب قد مسحا
الذنب يحزننى والعفو يفرحنى فاعجب لكاسب ذنب ينتشى فرحا
الإنبابة :

وفى الإنبابة يقول تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين^(١)) .

الذكر والفكر :

وفى الذكر والفكر يقول تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار^(٢)) ويقول سيدى الشيخ على عقل فى إلهامه المرتجل :

إن الطريق هى الذكر الكثير فلذ بالذكر هذا هو التقوى هو القدم
المحبة :

(١) الآيات من ٥٤ - ٥٨ سورة الزمر
(٢) الأيتان ١٩٠ و ١٩١ من سورة آل عمران .

وفى المحبة يقول تعالى مثلا (والذين آمنوا أشد حبا لله ^(١)) . ويقول سيدي الشيخ على عقل
فى إلهامه المرتجل رضى الله عنه :

محبة خالقي مشكاة قلبى على أنوارها ألقى وصولى
فإن الحب أشواق وصبر يعز على المنافق والكسول

التوكل الرضا التسليم والزهد :

وفى التوكل يقول تعالى مثلا (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ^(٢)) أى كافيته كما يقول
سبحانه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون ^(٣)) وفى الرضا يقول تعالى (رضى الله عنهم ورضوا
عنه) وفى التسليم يقول سبحانه (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله
وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ^(٤)) وفى الزهد يقول تعالى مثلا (المال
والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ^(٥)) كما يقول
تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة
والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤنبئكم
بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدون فيها وأزواج مطهرة
ورضوان من الله والله بصير بالعباد * الذين

(١) آية ١٦٥ من سورة البقرة

(٢) آية ٣ من سورة الطلاق .

(٣) آية ١٢٢ من سورة آل عمران .

(٤) آية ٢٢ من سورة الأحزاب :

(٥) آية ٤٦ من سورة الكهف

يقولون ربنا إننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقتنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار^(١))

الصبر :

وفى الصبر قال تعالى آيات كثيرة بلغت العشرات ، ويكفيها منها على سبيل المثال قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب^(٢)) وقوله تعالى (والله يحب الصابرين^(٣)) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون^(٤)) .

الإيثار والصدق والمجاهدة :

وفى الإيثار قال تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون^(٥)) . وفى الصدق قال تعالى (فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم^(٦)) وقال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا^(٧)) . وفى المجاهدة قال تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده^(٨)) كما قال تعالى (والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين^(٩))

النفس بأنواعها :

وفى مخالفة الهوى قال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس

(١) الآيات من ١٤-١٧ من سورة آل عمران

(٢) آية ١٠ من سورة الزمر

(٣) آية ٤٦ من سورة آل عمران

(٤) آية ٢٠٠ من سورة آل عمران

(٥) آية ٩ من سورة الحشر

(٦) آية ٢١ من سورة محمد

(٧) آية ٢٣ من سورة الأحزاب

(٨) آية ٧٨ من سورة الحج

(٩) آية ٦٩ من سورة العنكبوت

عن الهوي. فإن الجنة هي المأوي^(١). وفي النفس الأمانة قال تعالى: (إن النفس لأمانة بالسوء إلا ما رحم ربي^(٢)) وفي النفس اللوامة يقول تعالى (لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة^(٣)) وهي النفس التي تلوم صاحبها علي اقتراف الخطيئة أو علي التقصير في الطاعات وفي النفس الملهمة قال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها^(٤)) وفي النفس المطمئنة الراضية المرضية قال تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلي ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وأدخلي جنتي^(٥)) وفي الصديقين قال تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون^(٦)) وفي المقربين قال تعالى (والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين^(٧))

الإيمان والعمل:

ومن كل ما تقدم يبين للسامعين الكرام ان الإيمان إقرار باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان ، فلا يكتفي المؤمن بالعقيدة دون العبادات ، بل لابد له من تلازم الاعتقاد الصحيح والعبادات المفروضة . وقد جاء في وصيه لقمان الحكيم عليه السلام لابنه : يا بني : كما لا يصلح الزرع إلا بالماء والتراب فكذلك لا يصلح الإيمان إلا بالعلم والعمل . ويؤيده في قوله هذا الحديث الشريف : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم والعمل الجاد مع الاعتقاد الصحيح يكسب المؤمن تقوي الله عز وجل .

(١) الأيتان ٤٠،٣٩ من سورة النازعات .

(٢) آية ٥٣ من سورة يوسف .

(٣) الأيتان ٢،١ من سورة القيامة .

(٤) الأيتان ٨،٧ من سورة الشمس

(٥) الآيات من ٢٧-٣٠ من سورة الفجر

(٦) الآية ١٩ من سورة الحديد

(٧) الآية ١٠-١٤ من سورة الواقعة .

وتقوي الله هي وصية الله لأمتنا المحمدية وللأمة التي تقدمتها في الزمن ويدل علي ذلك قوله تعالى (ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا ^(١)) وقد قال العلماء أن هذه الآية هي القطب الذي يدور عليه القرآن الكريم كله .

ويبشر الله عباده المتقين فيقول سبحانه وتعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا ^(٢)) وقد جاء في الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وسلم : إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم (ومن يتق الله) فما زال يقرؤها ويعيدها .

وما أننا المتقين بخاتمتهم السعيدة التي يخبرنا الله تعالى بها في قوله الكريم (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ^(٣)) جعلنا الله وإياكم من المتقين وأشكر لكم حسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الأربعاء ٢٥ شوال ١٣٩٢

٢٩ نوفمبر ١٩٧٢

حسن كامل المطاوى

(١) آية ١٣١ من سورة النساء .
(٢) الأيتان ٢ و ٣ من سورة الطلاق
(٣) الآيات من ٧٣ - ٧٥ من سورة الزمر .

